The Implied Structure in Husseini Discourse

Lecturer Dr. Wijdan Sadiq Saddam
University of Basrah / Basrah and Arabian Gulf Studies Center
E-mail: wjdin.sadaam@uobasrah.edu.iq

Abstract:

This study examines a corresponding, or near-corresponding, dimension of the implied structure in the discourse of Imam al-Husayn (peace be upon him), through a reading and analysis of this discourse within the context of the topic that presents the image of the Imam as a man of letters.

The study first clarifies the linguistic and terminological concepts of both *structure* and *discourse*, drawing on the theoretical formulations of these two concepts in works of literature and النقد. It then addresses the cultural references to which the Husseini discourse may be attributed, as these references have shaped a clearly defined structural framework and vision. All of this is pursued through applications to selected examples of this discourse that realize what is meant here by the implied structure.

Keywords: structure, discourse, cultural references, political discourse

البنية المضمرة في الخطاب الحسيني

المدرس الدكتور وجدان صادق صدام
جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: wjdin.sadaam@uobasrah.edu.iq

الملخص:

تناول البحث الحديث عن بعد مطابق أو قريب للبنية المضمرة في خطاب الإمام الحسين عليه السلام، على وفق قراءة وتحليل لهذا الخطاب ضمن سياق الموضوع الذي يقدم صورة الإمام/ الأديب .

فكان هناك بيان لمفهوم اللغوي والاصطلاحي لكل من البنية والخطاب من خلال ما تم التنظير لهذين المفهومين في كتب الأدب والنقد، ثم احتلت المرجعيات الثقافية التي يمكن أن نحيل إليها ما شكّله الخطاب الحسيني من هيكل بنائي واضح المعالم والرؤى ؛ كل ذلك تم عبر تطبيقات لما يمكن أن يكون نماذج من هذا الخطاب التي تحقق لنا ما نقصده بالبنية المضمرة .

الكلمات المفتاحية : البنية ،الخطاب، المرجعيات الثقافية ، الخطاب السياسي.

المقدمة:

الحمد لله الذي هدانا إلى سبيل المعرفة الحقة التي تشرق على النفوس من خلال استلهامها حكم آل البيت عليهم السلام ومعارفهم وعلومهم، ولا سيما ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام .

لقد دار الحديث هذا البحث عن بعد مقارب للبنية المضمرة في خطاب الإمام الحسين عليه السلام ، على وفق قراءة لهذا الخطاب وتحليله ضمن سياق الموضوع الذي يقدم صورة الإمام/ الأديب .

فكان الحديث عن المفهوم اللغوي والاصطلاحي لكل من البنية والخطاب من خلال ما تم التنظير لهذين المفهومين في كتب الأدب والنقد، ثم احتلت المرجعيات الثقافية التي يمكن أن نحيل إليها ما شكّله الخطاب الحسيني من هيكل بنائي واضح المعالم والرؤى .

وأخيراً كان البحث التطبيقي لنماذج من هذا الخطاب التي تحقق لنا ما نقصده بالبنية المضمرة ، وهي بنية نأمل أن نكون قد وفقنا في استجلاء معالمها ورسم خطوطها التي تخللت هذا الخطاب الحسيني .

ولغرض التأكيد، فقد اقتصر هذا البحث على الخطاب الحسيني الذي قيل عند وصول الإمام إلى أرض كربلاء دون ما سبقه من كلام له عليه السلام منذ خروجه من المدينة في طريقه إلى مكة ومن ثم العراق .

التمهيد :

مفهوم البنية:

تتحدد البنية في معاجم اللغة بوصفها دالة على هيأة الشيء وهيكله ، فقد ورد في لسان العرب أن ((البنية جمع بُنى وبنى... بنى يبني الكلمة ألزمها البناء ، أعطاها بنيتها أي صيغتها ... البنية في الكلمة صيغتها والمادة التي تبنى منها ، وأبنيته بيتاً أي أعطيته ما يبني بيتاً))[١].

وذكر أيضاً((البواني قوائم الناقة، وألقى بوانيه أقام بالمكان واطمأن، أي أنه استقر بالمكان))[٢].

ولنا أن نستشف من معاجم اللغة ما يدل على تحديد معنى البناء على أنه نقيض الهدم، فالبنية(بكسر الباء وضمها) ما بنيته ، واستعملت المفردة للدلالة على إنشاء القصور والسفن[٣].

ويمكن القول إن الاستعمال اللغوي لمصطلح البناء يدل على فعل الخلق والإنشاء؛ فهو بمعنى التكوين على هيئات مخصوصة بعضها يختص بتكوين المواد الجامدة كالبناء ، وبعضها الآخر يتناول الأشياء الحية كبنية جسم الإنسان وغيره، ويتضح أيضاً أن المدلول اللغوي للبناء والبنية لا يخلو من صفة إبداع في التكوين والخلق ، وأنه يراد لها الثبوت والدوام[٤].

أما في الاصطلاح، فالبنية هي((ترجمة لمجموعة من العلاقات الموجودة بين عناصر مختلفة وعمليات أولية تتميز فيما بينها بالتنظيم والتواصل بين عناصرها المختلفة))[٤].

وقد وجد البنيويون أن تصور البنية يقع خارج العمل الأدبي، فهي لا تتحقق في النص على نحو غير مكشوف حيث تتطلب من الناقد البنيوي استكشافها[٥]؛ إذ ما من نص أدبي، نثراً كان أم شعراً، إلّا ويتألف من بنى صغيرة تتآصر فيما بينها بروابط متينة، فتصبح قادرة على إعطاء النص الأدبي بنيته المكتملة، سواء أكانت تلك البنية ظاهرة أم مضمرة؛ ويتم التعامل مع بنية النص بوصفها نسقاً من العلاقات الباطنية المدركة على وفق مبدأ الأولوية المطلقة للكل على الجزء، وهو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي ، على نحو يستوجب تغييرا في العلاقات إلى تغيّر في النسق نفسه، فيبدو النسق دالاً على معنى[٦].

فيما نظرت الدراسات الأسلوبية إلى البنية على أنها الأسلوب ذاته ، وبأنها ليست ثابته لأن الأسلوب ذاته متغير ، فهو يعني قول الشيء نفسه بطرق مختلفة[٧].

مفهوم الخطاب:

يقول صاحب القاموس المحيط إن((الخَطْبُ: الشأنُ، والأَمْرُ صَغُرَ أو عظُمَ... وخَطَبَ الخاطِبُ على المِنْبَرِ خَطَابَةً، بالفتحِ، وخُطْبَةً، بالضمِ، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوهُ . ورجلٌ خطيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَة[٨].

أما في الاصطلاح، فللخطاب جذور في اللسانيات، لكونه يستمد وجوده من ثنائية اللغة والكلام التي قال بها دو سوسير في محاضراته الشهيرة ، وللخطاب كذلك جذور في الأسلوبيات ، سواء أكانت من واجهتها القديمة التي تعنى بالبلاغة إلى جانب قواعد اللغة، أم من واجهتها الحداثية التي راعت النظام الصوتي والتركيب المورفولوجي، والبناء الدلالي، أي الملفوظ الذي يراه اللسانيون نصا، ويراه النقاد خطابا ، سلوكه لغوي تظهر فيه جدلية الصراع بين الدوال والمدلولات.

أما الخطاب في البحث النقدي، فهو فعل النطق، أو فعالية تقوّل، تصوغ في النظام ما يريد المتحدث قوله ، فـ(الخطاب) إذن كتلة نطقية لها طابع الفوضى وحرارة النفس، ورغبة النطق بشيء، ليس هو– تماما– الجملة، ولا هو– تماما– النص ، بل هو فعل يريد أن يقول[٩].

يُشير مفهوم الخطاب لدى علماء اللسانيّات إلى سلسلة الجُمل المحكيّة، والمنقولة شفوياً بين طرفين، يحاول أحدهما، وهو المتحدّث، إخبار المُستمع بأحداث ووقائع قد تكون حقيقةً، أو من نسج الخيال بقصد التأثير عليه، فالخطاب ببساطة هو الوسيلة المحكيّة التي يتم من خلالها تطويع كلمات اللغة بشكل ممنهج ومُتسلسل باعتبارها وحدةً تأثيريةً.

ويعدّ الخطاب رسالة تواصلية إبلاغية متعدد المعاني يصدر عن باث(المخاطب) وموجه إلى متلق معين عبر سياق محدد، وهو يفترض من متلقيه أن يكون سامعا له لحظة إنتاجه ، ولا يتجاوز سامعه إلى غيره ، إذ يتميز بالشفوية ويدرس ضمن لسانيات الخطاب[١٠].

المرجعيات الثقافية للخطاب الحسيني

لقد نشأ الإمام الحسين عليه السلام في كنف جده رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، خير من نطق بالضاد ، الذي اصطفاه رب العالمين ليحمل في صدره أقدس وأبلغ نصوص اللغة العربية. وكان يتشرب الفصاحة والبلاغة من رجلٍ خط للبلاغة منهجها ، وزان العربية بدرر أقواله وخطبه، ذلك هو والده وسيد الأوصياء علي ابن أبي طالب عليه السلام .

أ- القرآن الكريم

ولأن المعين الثّر الذي نهل منه الحسين عليه السلام لا يبتعد عن القرآن لفظاً ومعنى، فقد بدا واضحاً أنه يرتكز عليه بدرجة كبيرة في خطابه الموجه للأصحاب، وللأعداء على حدّ سواء .

فكان أن أصبح القرآن الكريم مصدره الأول الذي حرص على تضمين خطابه نصوصاً منه بوصفها نصوصاً تمتلك من القوة الحجاجية ما يعجز العقول المعاندة عن مواجهتها. ولأن الإمام يمتلك قضية عادلة تستند إلى مبادئ واضحة المعالم تتجه بثبات نحو محاربة الظلم والطغيان، والسعي لإحداث الفعل الذي يحدث صدمة تنتشل الأمة من غفلتها وسباتها، نراه يكثر من الاستشهاد والتمثيل بآيات القرآن الكريم ليمنح خطابه قوة التأثير في نفوس وعقول المتلقين .

فعندما استقر به المقام في كربلاء خاطب حشود ابن زياد قائلاً :((وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون وإنا لله وإنا إليه راجعون هؤلاء قوم قد كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين))[١١]، هذا الكم من الألفاظ القرآنية وظفها الإمام بعناية واضحة في هذا النص لألقاء الحجة والتأثير على متلقيه عسى أن تنفع الذكرى ، ولكن هيهات لمن شاء الله أن يراه قتيلاً أن تجد كلماته قبولاً لدى هؤلاء القوم .

لقد وظّف الإمام آيات كاملة من القرآن الكريم في سياق خطابه إلى الأعداء عله بذلك أن يفتح مغاليق هذه القلوب التي أعماها الحقد والطمع. إذ يستشهد الإمام عليه السلام ، حين أقسم بالله أن لا يعطيهم بيده إعطاء الذليل ولا يقر إقرار العبيد، بآيتين من القرآن، فيقول: ((عباد الله (وإني عذتُ بربّي وربّكم أن ترجمون) ، (إنّي عذّت بربي وربي من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب)))[١٢].

إن اتكاء الإمام الحسين عليه السلام على آيات القران الكريم كان يحمل في ذاته غاية التذكير بما جرى على الأنبياء والرسل من أحداث قصّها علينا القرآن الكريم تصور ما لاقوه من عنت ومجابهة أقوامهم لما حملوه من رسالة وتبليغ .

فقد أراد الإمام في سياق التذكير أن يتخذ من أحداث ما جرى على نبي الله نوح(ʿ)، فقال مخاطباً الأعداء ((فاجمعوا شركائكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة قم اقضوا إليّ ولا تنظرون)) و ((إنّ وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين)) .

لقد أراد الإمام إلقاء الحجة على هؤلاء القوم وهو يعلم أنهم أبعد ما يكون عن الإستجابة ، ذلك أنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً ، فهم أدوات يحركها من يملك القرار والسلطة ، غير أن الإمام أراد بهذه الآية أن يبصرهم بفداحة ما هم قادمون عليه من عمل يغضب الله ورسوله ، أن يذكرهم بأنهم سينتهون حيث أنتهى قوم نوح ، وما لحق بهم من عذاب في الدنيا وخزيٌ في الآخرة .

ثم عرج الإمام على قول الله عزّ وجل((إنّ وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين)) ، ليؤكد لهم إن الله الذي تولى نبيه نوح(ع) برحمته، وكذا الصالحين جميعاً، لن يتخلى عن الإمام وسوف ينصره على القوم الظالمين لا محالة .

ب– أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأقوال علي ابن أبي طالب عليه السلام

مما لا شك فيه أن أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم تعدّ منبعاً من منابع البلاغة والفصاحة العربية التي ينهل منها المسلمون ما شاء لهم من درر الكلام الذي دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، وكما أن للقرآن قدسيته وشرفه لفظاً ومعنى فإن للأحاديث النبوية المكانة الرفيعة والقدسية الواضحة ، فهي صادرة من نبي لا ينطق عن الهوى ، فكلامه عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام لا يداخله الباطل من بين يديه ، فكان من نافلة القول أن يستعين الإمام الحسين عليه السلام بهذه الأحاديث في بيان شرعيته وشرعية القضية التي يحملها .

لقد أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يؤيد شرعيته ، ويلقي الحجة ويقدم البرهان لذلك من خلال هذه الأحاديث التي تسبغ على خطابه قوة المعنى فضلا عن قوة الألفاظ. وهو في كل ذلك يبتغي تذكير الأمة بأولوية وأفضلية آل البيت وبيان مظلوميتهم واغتصاب حقهم الشرعي؛ لذلك نجد الإمام يلجأ إلى هذه الأحاديث في مواقف معينة، إذ إن الحديث((لا يرد إلّا في المواقف التي يتطلب فيها إظهار الحجة والبرهان والقصدية في ظلم حق أهل البيت وإنكاره))[١٣] .

يقول الإمام الحسين عليه السلام مخاطباً القوم:((أيها الناس إن رسول الله قال : من رأى منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسوله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم

يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله))[١٤]، ويقول كذلك : ((فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم . أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم))[١٥] .

وهنا يمكن ملاحظة التناص الذي يحيل إلى حديث لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يقول:((إني مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا))[١٦] .

وبما أن الإمام الحسين عليه السلام قد تتلمذ على يد سيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي عليه السلام، فلم يفته أن يضمن أقواله وحكمه في خطابه، إذ يقول:((إنه نزل من الأمر ما قد ترون وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت، وأدبر معروفها واسامرت حذّاء فلم يعرف منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل))[١٧] ، وهو وصف لأحوال الدنيا وتقلبها قد ورد في خطبة للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة[١٨].

ولم يقتصر الإمام الحسين عليه السلام في خطابه على استلهام التراث النبوي أو أقوال الإمام علي عليه السلام في ترصين الجانب البلاغي والحجاجي في خطابه الموجه للأعداء، بل ضمن هذا الخطاب ما تختزنه الذاكرة من أمثال وأشعار العرب، يختار منها ما يؤكد المعنى وما يرسخ توصيله، ولعل أبيات الشاعر فروة بن مسيك المشهورة خير دليل على ذلك التضمين .

ففي معرض الحديث عن قلة العدد وخذلان الناصر ، يقول الإمام الحسين عليه السلام :((ألا وأن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين ، بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام ، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وخذلان الناصر ....

فَإِنْ نَغْلِبْ فَغَلَّابُونَ قِدْمًا وَإِنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلَّبِينَا
وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنَّ مَنَايَانَا وَطُعْمَةُ آخَرِينَا
إذا الموت رفع عن أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فَلَوْ خَلَدَ الْمُلُوكُ إِذَنْ خَلَدْنَا وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذَنْ بَقِينَا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا))[١٩]

وهنا تتداعى المعاني بين نثره عليه السلام وبين الأبيات التي اختارها ، وكأنها تتوالد على وفق ألية التدافع والاسترجاع في سياق بناء النص، فكأننا أمام نصّ واحد ولكنه في الأصل نصّان مختلقان من حيث الصياغة والشكل ؛ فالأول نصّ تثري، والثاني نصّ شعري لكنهما يحملان ذات المضمون الذي يكاد أن يكون متطابقاً إلى حدّ كبير .

ومن هنا كان الخطاب الحسيني مبدعاً بلحاظ ((إن الابداع في شتى المجالات يستند بصورة أساسية إلى استعدادات ذاتية مدعمة بعوامل تربوية وبيئية ملائمة، واهتمامات أو ميول ذاتية))[٢٠] ؛ وهو خطاب مبني على دلالات واضحة المعنى تارة، ومضمرة تارة أخرى، إذ يعيد تركيب المواقف والحوارات على وفق استباق زمني في ترتيب الأحداث التي حصلت في مكان وزمان معلومين وثابتين، والتي تحكي واقع وانكسارات وتناقضات مجتمع سيطرت عليه مظاهر الظلم والطغيان، والرغائب المادية من طمع وحب للدنيا الزائلة، فكان خطاب الإمام الحسين عليه السلام بمثابة المعامل التاريخي الذي يعيد إلى الناس ذاكرتهم .

خطاب الإمام الحسين عليه السلام لأصحابه وأهل بيته

توجه الإمام الحسين عليه السلام إلى أصحابه وأهل بيته حين تيقن المكان، قائلاً :((لا ترحلوا منها، ها هنا والله مناخ ركابنا، ها هنا والله سفك دمائنا، ها هنا والله ذبح أطفالنا، ها هنا والله موضع قبورنا ، وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله ولا خلف لقوله))[٢١].

يعدّ هذا النص أول خطاب قاله الأمام الحسين عليه السلام لأصحابه عند وصوله إلى ارض كربلاء سائلا عن اسمها فقيل له أسماء عدة منها كربلاء، فيأخذ قبضة من ترابها ويقول إنا لله وانا إليه راجعون ، ويأمر أصحابه بالنزول والتخييم فيها .

فهذه هي الأرض التي قال عنها الإمام في أول خطاب قبل خروجه من مكة المكرمة((كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء)) ، وهذه هي الأرض التي وعده بها جده رسول الله (ص) أن يقتل فيها ليصبح قبره مزاراً وقبلة لأحرار العالم .

تتحدد دلالة النسق الظاهر في هذا الخطاب بأن الإمام الحسين عليه السلام قد أبان لأصحابه وأهل بيته المصير الذي ينتظرهم في هذه البقعة من الأرض، أمّا ما يضمره هذا النص فهو نعيه نفسه وأصحابه وأهل بيته ، إذ إن خطابه يرتكز في بنيته على تعابير الحزن الكبير الذي يعتريه ، ومن السهولة على المتلقي أن يستشف نبرة الحزن في هذا الخطاب.

تتجلى في هذا الخطاب ظاهرة التكرار التي أكدت الدراسات النقدية الحديثة على أنها من أبرز الظواهر الخالقة لشعرية الصوت لما يملكه من تنغيم مزدوج داخلي وخارجي، ولما يفصح عنه من تركيز الدال في بنية النص على أهمية المكرر وفاعليته الإيحائية[٢٢].

لقد أسهمت صيغة التكرار في التراكيب في إضفاء صفة الحزن من خلال التأكيد على أن سفك دمائه عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وسبي نسائه، سيكون على هذه الأرض لا محالة(ها هنا والله مناخ ركابنا ، ها هنا والله سفك دمائنا، ها هنا والله ذبح أطفالنا ، ها هنا والله موضع قبورنا).

إن بنية هذه التراكيب تؤكد وعد رسول الله للإمام (وبهذه التربة وعدني جدي رسول الله ولا خلف لقوله) ، وهو وعد إلهي على لسان الرسول الذي لا ينطق عن الهوى .

صنع الإمام الحسين عليه السلام تاريخ اللحظات التي تفاعلت مع مخاض ثورته ، فقد امتزج المستوى الإبداعي مع مستوى البطولة عند الإمام عليه السلام في عملية التحول لما أراد أن يوصله إلى العالم أجمع ، وليس للأمة الإسلامية فحسب في الوقوف بوجه الظلم والطغيان .

يقول عليه السلام مخاطباً أصحابه في كربلاء:((أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا بالدين، جعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد ، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أخير من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني حيراً، ألا وإني لأظن يومنا مع هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم حرج مني ولا ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه حملاً، وذروني وهؤلاء القوم فإنهم لا يطلبون غيري ولو أصابوني وقدروا على قتلي لما طلبوكم))[٢٣].

هذا النص يمكن قراءته بأنساقه الظاهرة التي لا يمكن أن تبتعد عن الهدوء والرضا الذي يملأ قلب الإمام عليه السلام بما ينتظره من مصير على هذه الأرض، مع الثناء والامتنان لأصحابه وأهل بيته الذين امتحن قلوبهم وعقولهم فتيقن بصدق موقفهم وقوة عزمهم .

ومع تقديم الإمام لهذه الرؤية الواضحة لما ينتظره من مصير– لا بدّ منه – ، ومنحه الإذن للأهل والأصحاب بالنجاة بأنفسهم وإعفائهم مما كان في رقبتهم من بيعة للإمام ، فأن المنطق النفعي كان يستلزم من هذه الجماعة – لو كانت جماعة عادية – أن تنجو من الموت المحتم ، وهي نجاة لها ما يبررها شرعاً وعقلاً ؛ لكن ذلك لم يحدث لسبب واحد أنهم وصلوا درجة اليقين بصحة موقف إمامهم ، وعلموا أن مصيرهم قد ارتبط بمصيره ، فاختاروا الخلود الأبدي على الفناء ، وأصبحوا من الفائزين في الدنيا والآخرة .

وأحسب أن قناعة الإمام الحسين عليه السلام بوفاء أصحابه وأهل بيته، والحبّ الذي تشرب قلوبهم لإمامهم جعلت من هذا الخطاب خطاباً في شحذ الهمم وإثارة الحماس ورفع المعنويات بصورة غير مباشرة، لأن لا أحد يتصور أن أناس يمتلكون هذا الكم من البرّ والوفاء لقائدهم يمكن أن يفكروا في مفارقته وخذلانه، ويسلموه إلى الموت الذي ينتظره ، دون أن يبذلوا دونه الغالي والنفيس. كما لا يمكن أن نتصور أن موقفاً من قائد عظيم يأذن لأصحابه بتركه والنجاة بأنفسهم، وهو بأمس الحاجة لمن ينصره ويعينه على مواجهة عدوٍ يتربص به، أن يقابل بأقل منه كرماً، فكانت الوقفة البطولية التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وكان الخلود الذي ما بعده خلود .

إذن، هذا الخطاب تتحرك فيه البنية المضمرة على مساحة واسعة من التأويل، تجعلنا نقرأ فيه خطاباً في رفع درجات الاستعداد للتضحية، واستفزاز قناعة المخاطبين وإيمانهم بقائدهم وإمامهم وقضيتهم ، وهو

استفزاز كشف عن صدق المشاعر والمواقف، كما عن أن وصف الإمام لأصحابه وأهل بيته بأنهم الأوفى والأخير لم يكن لمجرد المدح والثناء، بل كان إعلان لما سيأتي من مواقف البطولة والتضحية .

ونبصر في هذا الخطاب السمو الإنساني المتمثل بإيثار الحسين عليه السلام لأصحابه، راضياً بالمصير الذي ينتظره وهو في أشد الحاجة لمن ينصره ، فيبدو الجود وكأنه ملتقى القيم الإنسانية كلها، فهو متوزع فيها ومخالط لها؛ فهنالك الجود بالنفس، والجود بالمال، والجود بالعمل، والجود بالمشاعر؛ وكلّ هذا الجود جسده الإمام في عبارات الثناء والمديح لأصحابه وأهل بيته، وهو فعل أقل ما يوصف به أنه مظهر من مظاهر الجمال الذي يكتسب ((دلالاته ضمن جدل العلاقة بين البنى التحتية والفوقية، بين القاعدة المادية للمجتمع البشري وأنشطته الروحية مع ما يعنيه هذا الجدل من صراع بين التناقضات والطبقات، لذا يعدّ جميلاً كلّ ما هو حرّ وثوري ومتطور وعضوي ومنسجم))[٢٤].

خطاب الإمام الحسين عليه السلام مع أعدائه

انتقل الإمام إلى مخاطبة الأعداء بعد أن علم أنهم عزموا على قتاله من خلال ما بدر منهم من تحركات ومواقف على الأرض توحي بذلك. فكان أن استحضر ما يمليه عليه الواجب الشرعي بوصفه إمام العصر أن يقدم على نصيحة القوم، وبيان ما هم قادمون عليه من عمل سيغضب الله ورسوله ويلقى على كاهلهم ذنباً عظيماً تكون نتيجته خسران الدنيا والآخرة . فيتوجه لهم بالخطاب قائلاً : ((أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ ، وحتى أعتذر إلى الله وإليكم من مقدمي عليكم فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون ، إنّ وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين))[٢٥].

في هذا الخطاب يعلن الإمام عن أمر غاية في الأهمية ، حين يطلب من الأعداء أن يسمعوا قوله ويصغوا لموعظته ، وهذا الطلب هو إدانة لهذه الجموع التي عزمت على محاربته وقتاله ؛ ذلك أنه إخبار غير مباشر بأن الإمام هو إمام عصرهم ، ومن ثم فهو واجب الطاعة ، فكيف لهؤلاء القوم – وهم يدعون الإسلام – أن يحاربوا من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بطاعته والامتثال لأوامره ونواهيه ؟. إن في ذلك لمفارقة عجيبة أراد الإمام أن يلفت النظر إليها من خلال التأكيد على إمامته الشرعية التي حاول الأعداء أن يصرفوا الناس عنها بشتى الوسائل.

ومن يمعن النظر في هذا الخطاب يجد أن الإيجاز يحتل مساحة ليست بالقصيرة في خطاب الإمام الحسين عليه السلام ، إذ عمد الإمام إلى انتقاء مكونات بنية خطابه على وفق هندسة جمالية ، فكان نادراً ما يطنب في عباراته التي اتسمت بالحوارية في تحذيره للمسلمين من خلافة يزيد ، إذ يقول : ((فلا تغرنكم

هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها ، وأراكم اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم ، وأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحلّ بكم نقمته ، وجنبكم رحمته ، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم فتباً لكم ولما تريدون))[٢٦].

إن جمالية بنية الإيجاز في خطاب الامام الحسين عليه السلام إنمازت بالتلون الأسلوبي ، إذ يرى بعض النقاد أن تجنيد المؤكدات قبال المحذوفات بتعاضد بين المعطوفات والإضافات على مستوى الأدوات والجمل والمفردات والتراكيب المتنوعة من جانب، وعلى مستوى الغائيات البلاغية التي تسند إيجازه من جانب آخر ، وتعضد لاحتمالات استيعاب رؤيته الموضوعية للهدف الرئيس الذي من أجله كوّن بنية إيجاز نثره ابتغاء إيصاله للمتلقين، حيث ألبسه لباس التكثيف والجمع التراتبي من خلال ضغط خلايا الرؤية المتاحة في مضمون أفكاره مع بنية تشكّل خطابه الذي بدوره يوسّع مركز تبئير تشظي الدلالات الاحتمالية[٢٧].

ويمضي الإمام الحسين عليه السلام في مخاطبة حشود السلطة الأموية محاججاً إياهم بنسبه الشريف، وبما أرسلوه له من كتب ورسائل تحثه على القدوم إلى العراق، فيقول: ((فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم ؟ فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم . ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته أو بقصاص جراحة))[٢٨] .

فالإيجاز يجعل((كلام الأوساط على مجرى متعارفيهم في التأدية للمعاني فيما بينهم))[٢٩] ، ذلك أن له دلالة جمالية تتحقق في بنية الخطاب تتمثل في توصيل المعنى للمتلقي بجمل مكثفة تخلق نسقاً تتبلور حوله دلائل المعنى الذي يريد المتكلم أن يبثه إلى المتلقي ، مراعياً في ذلك الظروف المحيطة به وما يرافق ذلك من مداخلات نفسية وزمكانية .

الهوامش :

١- لسان العرب، ابن منظور ، ط٣ ، دار احياء التراث العربي ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ٤٥٣ .

٢- المصدر نفسه .

٣- ينظر: الصحاح في اللغة والعلوم، الجوهري، مج١، مادة (بنى) .

٤- ينظر: المصطلح النقدي في (نقد الشعر) ، إدريس الناقوري ، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م ، ٣٦.

٥- نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، ط٤ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ١٢١ .

٦- ينظر ٥-نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل ، ط٤ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٥م، ٤٥.

٧- ينظر: عصر البنيوية، آديث كروزيل، ترجمة: جابر عصفور، آفاق عربية، بغداد ،١٩٨٥م ، ٢٨٩ .

٨- ينظر: الأسلوب والاسلوبية، كراهام هاف ، ٦٧ .

٩- الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة (خطب) .

١٠- ينظر: الاسلوبيات وتحلبل الخطاب، رابح بوحوش ، جامعة عنابة ، الجزائر ، ٨٥ .

١١- مقتل الإمام الحسين ، الخوارزمي، ٣٤٥ .

١٢- أنساب الأشراف، ١٨٨/٣ .

١٣- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية ، هادي سعدون ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٨م ، ٣٣ .

١٤- الأمالي، الشيخ المفيد، تحقيق: علي أكبر غفاري، ط٥ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم ، ١٤٢٥هـ .

١٥- الأسرار الحسينية ،

١٦- سنن الترمذي، أبو عيسى بن عيسى الترمذي، تحقيق محمود محمد محمود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ٢٢٣/١ .

١٧- مقتل الخوارزمي ، ٢٣٥/٢ .

١٨- نهج البلاغة، الإمام علي ، صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢م ، ٤٣٢ .

١٩- تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي الحراني، تحقيق: علي أكبر الغفاري ، رابطة أهل البيت الإسلامية ، (د ت) ، ٢٤١ .

٢٠- جماليات النص الأدبي،دراسات في البنية والدلالة،مسلم حسب حسين ، دار السياب ، لندن ،٢٠٠٧م ،٢٣ .

٢١- ينظر: النص الغائب، محمد عزام ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠١م ، ١٥ .

٢٢- الأسرار الحسينية ، محمد فاضل المسعودي ، مؤسسة الأنوار الفاطمية ، ١٤٢٦هـ ، .

٢٣- المستويات الجمالية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر، نوفل أبو رغيف، ط١ ، ٢٠٠٨م،٦٤ .

٢٤- تاريخ الطبري ، ٣١٥/٣ .

٢٥- في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، أحمد محمود خليل، دار الفكر، دمشق،١٩٩٦م ، ٢٥.

٢٦- مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي ، ٣٤٥ .
٢٧- ينظر: الأُسلوبية والأُسلوب: ٧٤.
٢٨- أنساب الأشراف، ١٨٨/٣ .
٢٩- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ، بيروت ، ٢٠٠٧م ، ٣٤٤/١ .

المصادر والمراجع:

- الأمالي، الشيخ المفيد، تحقيق: علي أكبر غفاري ، ط٥ ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ، ١٤٢٥هـ .
- الأسرار الحسينية، محمد فاضل المسعودي ، مؤسسة الأنوار الفاطمية ، ١٤٢٦هـ .
- الأسلوب والاسلوبية، كراهام هاف ، ترجمة كاظم سعد الدين ، دار أفاق عربية ، بغداد ، العراق ، ١٩٨٥ م .
- الأسلوبيات وتحليل الخطاب ، رابح بوحوش، جامعة عنابة ، الجزائر
- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: محمد باقر المحمودي، دار المعارف للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧٧م .
- تاريخ الأمم والملوك، الكبرى، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٤م .
- تحف العقول عن آل الرسول، الحسن بن علي الحراني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، رابطة أهل البيت الإسلامية، (د.ت) .
- جماليات النص الأدبي، دراسات في البنية والدلالة ، مسلم حسب حسين ، دار السياب ، لندن ، ٢٠٠٧م .
- سنن الترمذي، أبو عيسى بن عيسى الترمذي، تحقيق محمود محمد محمود ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٠م .
- الصحاح في اللغة والعلوم ، الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، ١٩٩٠م .
- عصر البنيوية، آديث كروزيل، ترجمة: جابر عصفور، آفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٥م .
- لسان العرب، ابن منظور، ط٣، دار احياء التراث العربي، القاهرة ، ١٩٩٣م .
- في النقد الجمالي، رؤية في الشعر الجاهلي، أحمد محمود خليل، دار الفكر، دمشق ،١٩٩٦م .
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف:محمد نعيم العرقسوسي، ط٨ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٥م .
- المستويات الجمالية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر، نوفل أبو رغيف ، ط١ ، ٢٠٠٨م .
- المصطلح النقدي في(نقد الشعر) ، إدريس الناقوري، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ١٩٨٢م .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ٢٠٠٧م .
- مقتل الإمام الحسين، الخوارزمي ، تحقيق:محمد السماوي ، مطبعة الزهراء ، النجف الأشرف ، ١٩٤٨م .
- النص الغائب ، محمد عزام ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠١م .
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، ط٤ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٥م .
- نهج البلاغة ، الإمام علي، صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م .

الرسائل والأطاريح:

- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية ، هادي سعدون، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٨م .